الفصل الثامن
الخمر فى رباعيات الخيام رمزية أم حقيقية؟

يقول الشاعر **أحمد رامى** إن عمر الخيام لم يكن يهتم بأمس ولا الغد، ويريد لو ينتهز الفرصة الحاضرة وينادم الكأس ليلاً فى ضوء القمر وفى مجلس الحبيب، وسَحَراً عند طلوع الفجر، ومساءً عند غروب الشمس على نغم الناى والرباب، وفى الربيع على شفا الوادى، وعلى ضفاف الغدير، بين الزهر المفتّر والجوّ المعطرّ، فإذا ما ذكر حرمانه من **الخمر** بعد الموت طلب أن يُغسّل بها، وأن يُعَدّ نعشه من كَرْمها، حتى إذا بَلِىَ جسده ودّ لو تُصاغ منه الدنان والأقداح.. وإنما أحب الخيام شُرب الخمر، لأنها تسمو بروحه حتى تصبح فى نجوة من الجسد. ولم يقصر حبه على أثرها فى نفسه، وإنما أحبّ طعمها المزّ ولونها الصافى، وأحبّ كأسها الشفّافة ودنّها الملأن. وكان يجد السعادة فى مجلس الشراب بين الصاحب والنديم..

*****

وفى **رباعيات الخيام** لمحمد رخا يقول **محمد بدوى الخولى** فى المقدمة إن بعض الباحثين لم يقفوا عند ظاهر ألفاظ خمرياته، وذهبوا إلى أن الخيام يتشح فيها بوشاح من الرمزية، وعندما يتغنى **بالسلافة** فى رباعياته إنما يعنى **سلافة الحب الإلهى** التى كثيراً ماتبتّل بها شعراء الصوفية فى مواجيدهم، ومهما يكن من أمر فإن هذا التوتر النفسى الذى يترجمه الخيام شعراً خالصاً هو نسيج الخيام وحده.

*****

وفى **رباعيات الخيام** لوديع البستانى أن بعضهم زعم أن الخيام كان فيلسوفاً مادياً كلوقريشوس، وأنه نظر نظرة فالفى الحياة أمداً معلوماً، وأجَلاً مصروماً، إلاّ أنه خالفه فى الدعوة فلم يقل قوله «كلوا واشربوا اليوم فغداً تموتون»، بل قال «اسكروا وتناسوا هموم الحياة، واغتنموا الفرصة قبل الفوات». ودليلهم فى ذلك إكثاره من ذكر **الخمرة والكأس** فى رباعياته.

وزعم آخرون أن الخيام كان صوفيا بحتاً، وأنه كان يتغزل بالخمرة تغزلاً، ويريد بها العزة الإلهية، شأن **ابن الفارض** من شعراء العربية، **وحافظ** من شعراء الفارسية.

فهل كان الرجل سكيراً متهتكاً، أم فيلسوفاً نزيهاً عفيفاً؟ سؤال كثرت الأجوبة عليه.

*****

وفى مقدمة الرباعيات لمحمد السباعى أن فريقاً من النقاد ذهب إلى أن عمر الخيام لم يكن فى شعره ذلك الشهوانى المادى الإباحى كما يدلنا ظاهر ألفاظه، وإنما كان صوفياً يرمز للذات الإلهية بألفاظ الخمر والساقى والكأس وهلم جرا، كحافظ الشيرازى وابن الفارض وغيرهما. ولكن أضداد هذا المذهب يقولون إن المدوّن المثبوت فى سيرة الخيام من فرط إدمانه الكأس واستهتاره بالشراب ينفى ذلك الرأى نفياً قطعياً، فكيفما كانت الخمرة المعنوية التى تغنّى بأوصافها حافظ الشيرازى، وقال فيها ابن الفارض:

يقولون لى صفها فأنت بوصفها * خبيرٌ، أجل عندى بأوصافها علم
صفاءٌ لا ماء ولطفٌ ولا هوا * ونورٌ ولانار، وروحٌ ولاجسم

وقال فيها:

شربنا على ذكْر الحبيب مدامة * سكرنا بها من قبل أن يُخلَقَ الكَرْمُ

فإن خمرة عمر الخيام لم تكن إلاّ عصير العنب المتهدّل من كرومه، يُعصر سائلاً محسوساً مرشوفاً من أقداح البلّور وقوارير الفضة الرّنانة. ولم يقتصر الخيام على شربها مع الندمان فى مجالس الشراب، بل كان يحسوها فى الخلوة، زاعماً أنّ ماتحدثه عنده من النشوة هو أقرب وسيلة وأحضر سبيل إلى إيصاله من مراتب العبادة إلى تلك القمة، التى منها يَسهُل عليه استشفاف نور الحق من وراء حجب الكائنات، واجتلاء سرّ الأبد من خلال ظُلمة الغيب، فذلك حيث يقول فى رباعياته:

فَليلُم مَن شاء أو فليعذل * إننى من معشر المسترذل
صغت مفتاحاً لباب مقفل * دونه منفوس كنز طالما
رام منك النُسك حصناً لايُرام

*****

حانةُ المَحّ فيها بارقة * من سنا الحق تجلت مشرقة
كيفما كانت فضويا محرقة * أو لوما بشماع بسما
بغيتى - لا معبدٌ داجى الظلام

وإذا لم تكن خمرة الخيام هى المادية المقصودة من الكرم، ولكن الخمرة الروحية، أعنى الذات الإلهية، فكيف يطلب أن يُغسل بها جسمه بعد الوفاة حيث يقول:

روّ قبل الموت من بَرْد الشمول * عودى اليابس من قبل الذبول
وإذا ما متّ فاجعل غُسولى * وياقياء العناقيد احتفر
لى وكفّنى بأوراق الثمار

ولماذا يود أن تُصَبّ الخمرة الروحية فى الأكواب المصنوعة من تراب الموتى بيد صوفى يخلفه حيث يقول:

فانبرى كوب حزين ولَوْلاَ * جفّ من عفاء وَبِلَى
عُلّهُ الصرف العتيق السّلْسَلا * عَلّهُ يشفى غليلى المستعر
ويُسرّى عن فؤادى المستطار

*****

وفى كتاب عمر الخيام لأحمد حامد الصرّاف أنه لم يرد أن أحداً قد ذكر أن الخيام كان مدمناً للخمرة سكّيراً مع كثرة تغزله بها، وإنما الخيام قد دعا الناس إلى اللذة، وحثّهم على طلب السرور، مدفوعاً بعقيدة فلسفية.. فلم يكن عدو الناس ولاصديقهم، ولم يطالبهم خيراً ولاشراً.. وقد جاشت فى صدره نفثات هى حقائق ناصعة ومقاصد عالية ومعانى جليلة، ألبستها قريحته الوقادة قوالب شعرية جميلة، أبرزها بصدقٍ وإخلاص ونيّة حسنة.. فلم يكن الخيام شاعراً مستهتراً، ماجنا شهوانياً، مادياً، كما ادّعى ذلك فرناند هنرى وفيتزجيرالد وغيرهما، وإنما كان حكيماً مفكراً له عقيدة خاصة تعبّر عن مزاجه ومذهبه ورأيه الفلسفى..

*****

وفى دائرة المعارف الصوفية لجون فيرجسون أن عمر الخيام كانت له رؤية صوفية، واستخدم الخمرة كرمز، فلم يكن يعنى بها هذه الخمرة المُسْكرة، وإنما المعرفة بالله، والتى إنْ تحققت لدى الصوفى استحدثت عنده حالة كالسُكْر الذى تستحدثه الخمرة إنْ جاز التشبيه.

*****

وفى كتابه «نظرة جديدة فى رباعيات الخيام» للدكتورة مريم محمد زهيرى أن الخيام لم ينظم كل مانُسب إليه من رباعيات، ومايمكن قبوله منها هو مايتفق مع شخصيته كعالم وفيلسوف ومفكر يريد أن يصل إلى الحقيقة، وما لايتعارض مع مكانته ومنزلته فى عصره، ومايتفق مع إيمانه وثقافته الدينية التى عبّر عنها فى كتبه.. ومع ذلك فلا يُستبعد أن يكون الخيام قد تعثّر فى طريقه إلى اليقين وزلّت قدمه لبعض الوقت، بالنظر إلى أن عصره لم

يكن نقياً تماماً فى عقائده ومذاهبه وسلوكه، فقد كانت الخمر تقدم فى قصور الكثيرين من عِلْية القوم.. وكانت هناك ألوان من الانحرافات قد أخذت شكل الأمور المألوفة. ثم رجع الخيام إلى الصواب لنقاء عنصره، ولاسيما أن هناك بعض الرباعيات قد نظمها فى التوبة وطلب العفو والمغفرة.

*****

وفى كتاب **كشف اللثام عن رباعيات الخيام للطرازى الحسينى** أن خلاصة ماتدل عليه الأدلة التاريخية والتحقيقات العلمية فى موضوع الرباعيات مع البحث الدقيق السليم حول مكانة الخيام العلمية ومبدئه الحقيقى، هو انقسام الرباعيات إلى رباعيات لابأس بها ويمكن أن تُنسب للخيام، ورباعيات مُستنكرة خمرية خليعة لاتتفق مع مكانته ومبدئه الذى ثبت عنه. ولو كانت له مثل هذه الرباعيات المستنكرة الخمرية الخليعة لما سكت عن روايتها المؤرخون الأقدمون والمؤرخون المعاصرون، ولقاموا بكشفها خدمة للحقيقة والتاريخ، ونهضوا بهذا الواجب خدمةً للدين الإسلامى والذود عن تعاليمه ضد عمر الخيام.

*****

هذا بعض ماأورده النقّاد فى موضوع **خمريات الخيام**. ولعّل أول مايمكن أن يناقش فى الخمريات هو **قيمتها الفنية**، ثم **القيمة الأخلاقية** التى تدعو إليها. ولو اعتبرنا الرباعيات مجرد قصائد شعرية تشيد بالخمر فإنها فوراً تسقط باعتبار النقد الفنى، فالخيام فيها قصير النفس ضحل الخيال. والصورة البلاغية عنده ملامحها فقيرة تعوزها الكثير من التفصيلات، ولغته بسيطة، وأسلوبه واضح حتى ليمكن التعامل مع الرباعيات كتعاملنا مع المواويل الشعبية كما يقول المازنى، وحتى ليبدو الخيام فى صورة أولاد البلد وهو يقول:

أنـا الـذى هـمـت صريـع العقـار • فـى مجلـس تُحـييـه كـأس تـُدار
فـعُدّ عـن نـصحى، لقد أصبحتْ • هـذه الطِلّى كـل المنى والخيـار

ولنلاحظ أن النقّاد فى بلاده فارس لم يعتبروه شاعراً مجيداً بسبب هذه الخمريات. ومنهم من يجعله من شعراء الطبقة الثانية أو الثالثة من حيث الإجادة كما سبق أن قلنا. ولم تكن للرباعيات فى عمومها قيمة فنية إلاّ باعتبار مايعرضه فيها الخيام من مساجلات فكرية

وصراعات وجدانية وصورمشحونة بالجرأة وإن بدت الأسئلة التى تطرحها بسيطة ظاهرياً إلى حد السذاجة.

ثم ماهى القيمة الأخلاقية فى الخمريات لو اعتبرناها كما هى فى الظاهر؟

والذى نراه أن الأدب بما هو كذلك لابد أن يكون أخلاقياً فى المحل الأول. وكل أدب هو بمثابة دعوة للآخرين أن يحنوا حنو المبدع فيه. والأدب له رسالته السياسية، والأديب ليس حراً أن ينشىء مايشاء من أدبيات ويقول فيها مايشاء، وإنما إبداعه فى جانب منه اجتماعى ويمكن لآخرين أن يتابعوه على سلوكياته فيه، وأن تكون لهم فلسفاته.

والجرأة الفكرية التى عليها الرباعيات، وماتضمنته من مشاهد إباحية وصور للتهتك تجعل الخيام مستنكراً عند الكثيرين. فإذا استبعدنا منها مالا ينسجم مع الفكر الخيّامى كما يعرضه فى الرسائل الأربع، ومع مالا يتفق والشهرة الذائعة له كفليسوف وعالم ولغوى وفقيه وفلكى، فإنه تظل عندنا بعضٌ من الرباعيات الخمرية لايسعنا مع كل ما قلناه عن الخيام فى السابق من فلسفات إلاّ أن نؤوّلها التأويل الواجب.

ولاأرى فى الشعر بالذات إلا أن له باطناً، ويلزمه عند الشعراء الكبار الكثير من التأويل. **والتأويل** ضرورة فى شرح وتفسير ونقد الشعر. وأعظم الشعر ما كان حديث الشاعر فيه رمزاً.

والتأويل فيما يبدو مطلوب حتى فى القرآن. ويرد ذكر الخمر فيه فى **سورة البقرة والمائدة ويوسف والواقعة ومحمد. وفى البقرة** يقول الله تعالى «يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من، نفعهما» (٢١٩). ويفسرها **فريد وجدى** بأن إثمهما لما يترتب عليهما من تلف الأخلاق والصحة وضياع المال، وفيهما مع ذلك منافع للناس بالاتجار والعمل فيهما، ولكن إثمهما أكبر من نفعهما. وهذا هو الشرح اللغوى للآية.

ويتناول **الإمام القشيرى** نفس الآية بالتأويل فيقول الخمر ماخامر العقول، وكما أن الخمر حرام بعينها فالسُكرْ حرام بقوله صلى الله عليه وسلم «حُرمت الخمر بعينها والسكرْ من كل شراب»، فمن يَسكَر من شراب الغفلة استحق مايستحق شارب الخمر من حيث الإشارات، فكما أن السكران ممنوع من الصلاة فصاحب السكرْ بالغفلة محجوب عن المواصلات وأوضح شواهد الوجود.

ويوغل العارف بالله محيى الدين بن عربى فى التأويل أكثر من ذلك ويقول: ويسألونك عن خمر الهوى وحب الدنيا، وميسر احتيال النفس فى جذب الحظ. قل «فيهما إثم» الحجاب والبعد، «ومنافع للناس» فى باب المعاش وتحصيل اللذة النفسانية، والفرح بالذهول عن الهيئات الرديئة المشوشة والهموم المكدرة.

ذلك مقصود التأويل إذن وليس هو التأويل الآخر الذى ارتبط بالفرق الباطنية، حيث أوّلوا الخمر والزنا والسرقة واللواط وغير ذلك من المحرمات بأن المقصود بها رجال ونساء بعينهم ترمز لهم هذه المحرمات، وقالوا مثلاً إن تأويل الجنة هو ما يصيب الناشىء من الخير والنعمة والعافية، والنار مايصيبه من خلاف ذلك، فأسرفوا وغلوْا ولم يكن لهم سند إلاّ الهوى بدافع الكفر والضلال.

وفى سورة يوسف الآية ٣٦ يقول الشيخ محيى الدين بن عربى فى تأويل «إنى أرانى أعصر خمراً» هو اهتداء قوة المحبة إلى عصر خمر العشق من كَرْم معرفة القلب فى نوم الغفلة عن الشهود الحقيقى.

وفى سورة محمد الآية ١٥ «مثل الجنة التى وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفّى، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم» يقول الإمام القشيرى: كذلك اليوم شأن الأولياء، فلهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفاء، ثم شراب الولاء، ثم شراب حال اللقاء، ولكلٍ من هذه الأشربة عمل، ولصاحبه سُكْر وصحو.

ونخلص إلى الآتى:

- أن الخمر فى سور القرآن المختلفة عند أهل التأويل من العرفانيين كابن عربى والقشيرى وغيرهما هى الغفلة: وقد تكون خمر الهوى وحب الدنيا، وقد تكون العشق. وقد يكون المقصود بها تسليط حب اللذات على الروح. ويرتبط التأويل بالسياق، فالخمر المَعِين هى خمر العشق المكشوف لأهل العيان، والخمر البيضاء هى النورية التى تستقى من عين الأحدية، لا شوْب فيها ولامزج من التعينات.

- وقوله تعالى أنها لذة للشاربين أى لاغوْل فيها يغتال العقل، لأن الشاربين هم أهل الصحو، أخلصهم الله من الشوائب والحجاب فلا ينكر لهم.

- وقوله أنهار من خمر هى الأصناف من محبة الصفات والذات، لنيذة للشاربين الكاملين البالغين إلى مقام مشاهدة حُسن تجليات الصفات وشهود جمال الذات، العاشقين

المشتاقين إلى الجمال المطلق فى مقام الروح والاستغراق فى عين الجمع، من المتقين عن صفاتهم وذواتهم.

- وقوله **لاينزفون عنها**، أى بذهاب العقول، وبذهاب تمييزهم بالسُكْر. وقوله **لا يصدعون عنها** أى لا ألم معها ولاخمار، ولايطحون بسببها، لأنها كلها لذة، ولكونهم أهل صحو، غير محجوبين بالذات عن الصفات، واصلين واجدين لذة بَرْد اليقين، فإن محبة الوصول خالصة من ألم الشوق وخوف الفقدان.

*****

ونتأمل خمريات الخيام فنكاد نجزم بأن رباعية كهذه تحتاج إلى تأويل، فالرمز فيها واضح المعنى والمقصود، ولغتها وجودية صوفية خالصة:

إذا انطوى عيشى وحان الأجل * وسُدّ فى وجهى باب الأمل
فرّ حباب العمر فى كاسه * فصبّها للموت ساقى الأزل

واستخدام الخيام للمصطلح الصوفى «السكر» و«الصحو» و«الغفلة» واضح أيضاً فى هذا البيت:

والصحو باب الحزن فاشرب * تكن عن حالة الأيام فى غفلة

*****

وفى هذه الأبيات يستخدم **السقيا والكأس** استخداماً شعرياً كما يقول **هيلدرلن** - إن الشعر هو الذى يجعل اللغة ممكنة، وماهية الشعر من ماهية اللغة، والشاعر الجدير بالتسمية هو هذا اللغوى الذى يقرّب المعانى فيجسدها، ويهاجم بشعره القرب الجوهرى للأشياء، فيجعل آنيتها شاعرية ويؤسس لوجودنا بعباراته وأوصافه ومجازاته وكناياته. يقول الخيام:

إذا سقاك الدهر كأس العذاب * فلا تُبن للناس وقع المصاب

*****

ثم هو يقول مخاطباً الله عز وجل أنه كان موصولاً بالنَفْس منذ القدم فكيف أفريتَ شملنا؟ وكنتَ ترعانى فتركتنى للأسى والألم؟ فيطلب الخمر لأنه بها يتماسك، ولأن نفسه أسْيانة توشك أن تنفرط منه وتسيل، ولأنه بها قد ينتشى فيتخلص من الهّم، والخمر هى السلسبيل

فى الفنان. يقول:

وصلتني بـالنفس منـذ القدم * فكيـف تفـرى شملنـا الملتئـم
وكنت تـرهانى فمـاذا دهـا * إلـى اطّراحـى للأسـى والألـم
هـات الطلى فالنفس مما قليـل * تـوهك من فرط الأسى أن تسيل
عساى أنسى الهـم فى نشوتى * من بعد رشفى كأسها السلسبيل

واللغة فى هاتين الرباعيتين لغة وجودية صوفية تتحدث فى الأحوال، وهناك فرق بين شعر مجاله الأحوال وشعر آخر مجاله الكيفيات، والأول الشاعر فيه صوفى وجودى يتحدث فى الوجود الذاتى، والثانى الشاعر فيه كيفى طبيعى يتحدث عن واقع فيزيائى. والخمر عند الأول خمرٌ معنوية ويقرنها لذلك بالسلسبيل من ألفاظ القرآن، وهى عند الثانى الخمر الحقيقية ولايمكن وصفها بالسلسبيل لمضارها وقُبح فعالها.

*****

ورباعية كهذه لايمكن إلاّ أن تكون موضوعة فهى ليست شعراً وإن كانت كلاماً منظوماً، وإلاّ فماذا تقول من المعانى والقيم، وماذا تقدم من الأفكار؟

للصوم والصلوات ملتُ تنسكـاً
فتيقَنَتْ نفسى غداً بنجاحـــى
أسفاً فقد نُقِضَ الوضوء بنَسمة
والصوم زال بنصف جُرعة راح

*****

وهذه الرباعية المزرية والمُسفة معا:

غطـاء الـدِنّ يعـدل ألف نفْس
وتعـدل مـلك ذى الدنيا المُدام
أرى منديـل مسح الراح عنـدى
لـه فـوق الطيالـسة احتـــرام

*****

أو هذه:

إذا نلت رطلىّ قرْقف فاحسُ جامها
بكل اجتماعٍ راقٍ أو محفلٍ حَالـــى

فما يعتنى بارى الوجود بشاربٍ
لمثلك أو يهتم فى ذقن أمثالى

*****

أو هذه:

توضّأ إذا ماكنتَ فى الحان بالطِلا
فمن يُفتضح فلا يرجُ أن يَرْتَى
أدِرْ لى الحُمَيّا إنّ سِتر عفافنا
قد انشَقّ حتى لا نُطق له رَتْقَا

*****

ولو قارنا خمريات الخيام التى نزعم أنها صوفية الرموز بخمريات أبى نواس مثلاً – وهو شاعر الخمر بلا منازع، سنجد أنّ الخيام لايهتم بوصف الخمر فيها وصفاً على الحقيقة، ولكنه مشغول بأغراض أخرى تستحث الفكر ولاتستحث الغرائز وخيالات اللذة.

وأين البيت السابق الذى يقول فيه الخيام إن الصحو باب الحزن، والشُرب هو طريق تحصيل الغفلة – أين هو من قول أبى نواس:

اترك الأطلال لاتعبأ بها * إنها من كل بؤس دانية
واشرب الخمر على تحريمه * إنما دنياك دار فانية
مِن عُقار من رآها قال لى * صيدت الشمس لنا فى باطية

*****

وانظر إلى الخمريات الأخرى التى نصفها بأنها منحولة على الخيام نجد أنها تفتقد الأصالة وتقوم على التقليد ولاتمثل إبداعا شعريا كإبداع أبى نواس. بل إننا لنذهب إلى أنها تشايع أبا نواس على مذهبه فى الخمر، وفيها الكثير من التقليد لخمرياته، كهذا البيت عنده:

غرّد الديك الصدوح * فاسقنى طاب الصبوح

وهذا البيت من الرباعيات:

أتسمع الديك أطال الصياح * وقد بدا فى الأفق نور الصباح

*****

وترتبط الخمر فى الرباعيات الحقيقية بالأحوال الوجودية والقضايا التى تختص بالإنسان كموجود، كأن تُذكَر مقرونة بالهموم والموت وانقضاء العمر واكتساب الذنوب والزهد فى الدنيا والحض على مكرمةٍ أخلاقية أو اجتناء حكمة.

وأما الخمريات المنحولة فالخمر فيها ترتبط بلذة الشرب ومصاحبة النساء وسماع الرباب وضجة الحانات، والمقصود بها فى كثير من الأحوال إهانة الدين، والحط من شأن الصلاة والصوم، واستهجان التردد على المساجد.

والخيام الشاعر الصوفى المتزهد إذا ذكر الخمر لايقرنها إلا بشاهد من الطبيعة فيها اجتلاء لعظمة الله، وللجمال الأسنى الخالد، كالبساتين والغدران الجارية والبدر الطالع والبلبل الغرّيد. يقول الخيام:

لاتــدع للأســـى إليـك سبيــلا
لايكُ الهمّ فـــى الفؤاد نزيـــلا
واغتنمها فـالعمر ليـس طويـــلا
وترند إلـى ضفـاف المجــــارى
شاريا نخب بنتها بإنكـــــــار
فقليـل مانحن فـى ظهــر أرض
فى دجى جوفها سنغفى اغترابا

*****

وانظر إلى أبى نواس يطلق على الخمر اسم القهوة ويصفها بالقِدَم منذ سيدنا نوح الذى تقول التوراة: أنه زرع الكرم وخمّر العنب وشربه فسَكَر، فكان أول من جرّب السكْر كتعبير سفر التكوين:

قهـــوة تـذكّــر نُوحـــا * حـــين شـاد الفُلك نـــوح

وقارن بذلك الرباعيات المنحولة التى تنوّه بكيمياء القهوة، وتشيد بها كدواء قديم، القطرة منها تزيل ألف علّة!! وواضح أن مزيّف الرباعيات يحاول أن يقلد أبا نواس أو مدرسته فى الشعر الخمرى، ومع ذلك فهو لايقصد بها الدعوة لمذهب فى اللذة بقدر مايعنى بها طعن الدين.

*****

والخيام على العكس فى خمرياته الصوفية متأمل وفيلسوف، والخمر التى يورد اسمها لاتذكّر بالخمر الحقيقية، والصور الذهنية التى تستدعيها فيها الكثير من التأويل يقسرك قسراً على التفكير فى معان لها ليس منها مشاهد السكارى فى الحانات.

وتأمل معى مشهد الكؤوس التى تتخاطب مع بعضها، وتسأل أسئلة وجودية صميمة حول الخلْق والموت ومعنى الحياة، وتنهى المشهد بملاحظات فكاهية فيها السخرية. وقل لى هل الكؤوس هنا هى هذه القوارير من الخزف التى يُشرب فيها الخمر ويُصب فى الأفواه؟

ولانملك إلا الإعجاب بالمشهد وشدة شحنه بالإشارات العالية، ولانقول فيه إلا أنه «**مشهد فلسفى**». وبالمقارنة فإن مشاهد أبى نواس هى مشاهد ماجنة على الحقيقة، والخمر فيها خمر من العنب، والسكارى سكارى بها، وأبو نواس شاعر ومصور واقعى يعكس نبض الحياة التى يحياها بتفاصيلها ودقائقها. يقول:

أحسن منزل بذى قار * منزل خمارة بالأنبار
وشم ريحانه ونرجسة * أحسن من أنيق باكوار
ومِشْرة للقيان فى دعة * مع رشا عاقد لزنار
ألذ من مهمهٍ أكدُّ به * ومن سرابٍ أجوَب غرّار
ونقر عودٍ إذا ترجّعه * بنان رؤد الشباب معطار
أحسن عندى من أم ناجية * وأم عمروٍ وأم عمّار

هذه هى الخمر عند أبى نواس - أحسن من شخصيات واقعية، وحاناتها أحسن من أماكن تاريخية، بينما الخيام أو المنتحلون عليه يجعلونه فى شعره يفاضل بين الخمرة والمسجد ورمضان والجنة والحور وشراب الجنة!! وكلها رموز دينية صريحة، وكأنه يباهى بالإلحاد، فى حين مباهاة أبى نواس بالخمر - فتأمّل الفرق بين أن يكون الشعر مطبوعاً، وأن يكون الشعر منحولاً - فالخيام أُريد به أن يكون شعره خمريات، وأن يقال عنه أنه شاعر خمر، فضاع القصد وتاه عن المُزَيِّفين، وبرز الإلحاد، وتأكد أن المُزيَّف أو المُزيِّفين هم من الباطنية لاشك فى ذلك.

وكان أبو نواس يتعبد للخمر، وأراد المزيفون أن يفعل الخيام مثله، وقيل فى أبى نواس إنه فاق كل الشعراء فى خمرياته، ومع ذلك فالمزيفون حاولوا أن يجعلوا الخيام يتفوق عليه، فأطالوا فى الخمريات وأسهبوا دون طائل - والسبب أنهم لم يعنوا فى التزييف بالخمر فعلاً، ولكنهم عنوا الدين الإسلامى والطعن عليه!

ورغم تفوق أبى نواس فى الخمريات فإننا لم نسمع أو نشهد عن زجاجة خمر عصرية تسمى باسمه، فى حين أن زجاجات الخمر تملأ الفنادق والحانات باسم عمر الخيام، وظاهر أنّ الخيام المسلم السنّى الفيلسوف المؤمن وعلاّمة عصره هو المقصود كموضوع لطعن الإسلام.

وأبو نواس من مواليد ١٤٠هـ من خوزستان جنوب غربى فارس، وتوفى بعد موت الأمين سنة ١٩٩هـ بزمن قصير، أى أنه تاريخياً يأتى قبل الخيام. وكانت شهرته طول حياته أنه من الشعراء المُجّان من أمثال **ابن إياس والحسين الخليع بن الضحّاك وحمّاد عجرد وأبّان بن عبد الحميد اللاحقى والجارية عنان**: فأين ذلك من شهرة عمر الخيام بأنه الخواجة أى الأستاذ، والحكيم سيد الحكماء، والفيلسوف، والفقيه، واللغوى!!

وقال عنه صاحب تتمة صوان الحكمة.. إن القاضى عبد الرشيد بن نصر بن الحسن اجتمع به مرة بمدينة مرو، فسئل عن معنى المعوّذتين، وسبب تكرار بعض ألفاظهما، فاندفع الخيام يسرد كل قول نادر، ويورد كل شاهد شارد، حتى أتى بما لو جمع لبلغ حجم مجلد. وهذا هو مقامه المحمود فى التفسير مع أنه لم يمتط غاربه، فما ظنك بعلم أنفق فيه عمره حتى استدنى غاربه!!

ثم أين أصحاب أبى نواس شاعر الخمريات من أصحاب الخيام المنحولة عليه الخمريات؟ ذاك أصحابه مَنْ ذكرنا وهم فى المجون ملوك وصناديد!! وهذا أصحابه **الوزير نظام الملك** صاحب المدارس النظامية التى أراد بها أن تعلم الفقه السنّى وتنافس دار الحكمة مدرسة العلم الشيعى، **والإمام الغزالى حجّة الإسلام، وشيخ القرّاء أبو حسن الغزالى، والإمام مظفر الاسفزارى والسمرقندى مؤلف جهار مقاله**!!

وذاك تلاميذه «**عصابة المُجان**» كما كانت تُسمّى، وكان اجتماعهم فى حانات بغداد يقيمون فيها بالأيام، لاينقطع فيها شرابهم!! وهذا تلاميذه **شرف الزمان محمد الأيلاقى** الإمام الفيلسوف الذى وصفه البيقهى بأنه قد اجتمعت فيه الفضائل بأسرها العلمية والعملية، وله التصانيف منها اللواحق وكتاب الحيوان، **والحكيم على بن محمد الحجازى القاينى** قال فيه البيهقى كان طبيباً وقوراً وفيه آداب الأطباء وأخلاق جميلة، وكان عارفاً بظواهر المعقولات، وله رسائل فى الطب والمعالجات، وصنّف كتاباً فى الحكمة، وعاش تسعين سنة، ومات سنة ٥٤٦هـ، **والعلاّمة عبد الله بن محمد الميانجى**، وذكر البيهقى أنه من تلاميذه

وتلاميذ محمد بن حمويه والإمام أبى الفتح أحمد بن محمد الغزالى، ويضرب به المثل فى الذكاء، وخلط كلام الحكماء بكلام الصوفية، وكان فقيهاً أديباً يميل إلى التصوف، وصنّف فى صنوف العلوم، وكان الناس يعتقدون فيه ويتبركون به، وظهر له القبول التام بين الخاص والعام حتى حسدوه وأطلقوا ألسنتهم فيه، وقصده أبو القاسم الوزير، وكتب عليه محضراً، وحمله إلى بغداد مقيّداً، وصُلب بهمذان فى اليوم السابع من جمادى الآخرة سنة ٥٢٥هـ، وقبره يزار بها!!

هؤلاء هم أصحاب وتلاميذ هذا وذاك! فهل من الممكن بعد ذلك أن نشك فى أن الخيام لم يكن نواسى الطباع، وأن خمرياته الخليعة كانت منتحلة عليه، وأن من نحلوها عليه أرادوا بها أن يقرنوه بأبى نواس ويطعنوا به فلسفته الدينية ويشككوا فى توحيده وإيمانه؟

والذى لانشك فيه أن تزييف هذه الخمريات المستنكرة على الخيام كان من قِبَل الباطنية والشعوبيين المتزندقة الذين انتشروا فى بلاد الإسلام من أبناء المجوس وموالى الفرس، وكان المجون والزندقة من سمات عصر الخيام.

ويرد الكثير من النقّاد والمؤرخين هذا التيار الماجن الذى شمل شرب الخمر واللواط ورِفْقَة النسوان والزنا فى عصر الخيام إلى تأثير أبى نواس وعصابة المجّان من الفرس ومواليهم وكان شعر أبى نواس وجماعته وما ترتب عليه واتصل به من فنون الموسيقى والغناء يثير الاضطراب فى الأوساط الفكرية والأدبية والفنية فى عصره وما لحقه من عصور، وكثُر المقلدون له، ولانستبعد أن ينسبوا بعض ماقلدوه إلى الخيام لمشابهة سطحية بين رباعياتهم ورباعيات الخيام.

فماذا بشأن الرباعيات الخمرية التى يمكن نسبتها حقيقة إلى الخيام - هل كانت رباعيات صوفية المضمون إذن طالما أنها لم تكن إباحية؟

هذا ما سنتناوله فى الفصل القادم إن شاء الله.

*****